مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

سقوط دولة بني الأحمر في غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس بيد الأسبان

The fall of the state of Bani al-Ahmar in Granada, the last stronghold of Muslims, in Andalusia, in the hands of spaniards.

الباحث/ فتحي سالم حدود
Fathi Salim Hudoud

قسم التاريخ/ كلية الآداب - جامعة الزيتونة ليبيا
History department, Collage of Literature, Azzaytuna university - Libya
fathihadoud7@gmail.com

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الملخص

كانت غرناطة آخر القواعد الأندلسية الذاهبة التي توج سقوطها ظفر أسبانيا النهائي، باسترداد أرضها القديمة، والقضاء على دولة الإسلام في الأندلس. وقد صمد الغرناطيون مدة طويلة في هذه المنطقة وصلت إلى نحو قرنين ونصف القرن في وجه أعتى حركة وطنية ظهرت في العصور الوسطى والتي عرفت باسم حركة الاسترداد. جاءت الدراسة بعنوان :) سقوط دولة بني الأحمر في غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس بيد الأسبان) والتي صدرها الباحث بمقدمة فيها بيان للموضوع، وتحديد له، وأهدافه، وخطة البحث، والمنهج الذي سار عليه إلى غير ذلك مما تكون المقدمات منوطة به، وقد اشتملت الدراسة على مبحثين، تحدث الباحث في المبحث الأول عن : (نبذة تاريخية عن غرناطة) والذي جاء فيه الحديث عن مطلبين، المطلب الأول: غرناطة أصل تسميتها، موقعها، وتاريخها. أما المطلب الثاني فتحدث عن: قيام دولة بني الأحمر في غرناطة. كما تحدث الباحث في المبحث الثاني عن: (حصار غرناطة وسقوطها) والذي جاء فيه الحديث عن مطلبين، المطلب الأول: حصار واستسلام غرناطة. أما المطلب الثاني فتحدث عن: الأسباب والعوامل الكامنة وراء سقوط غرناطة.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، غرناطة، بني الأحمر، قشتالة.

Research summary

Granada was the last of the departed Andalusian bases whose fall culminated in Spain's final triumph, by recovering its ancient lands and eliminating the islamic state in Andalusia. The Granadans have held out for a long time in this region, reaching about two and a half centuries, in the face of the most powerful national movement that emerged in the Middle Ages, which was known as the reconquista movement. The study came under the title :(The fall of the state of Bani al-Ahmar in Granada, the last stronghold of Muslims in Andalusia, in the hands of the spaniards), which was issued by the researcher with an introduction in which there is a statement of the topic, identification of it, its objectives,

the research plan, and the methodology that followed it, among other things that are the introductions it is entrusted to him, and the study included two topics, in the first topic, the researcher talked about: (A historical overview of Granada), in which the discussion came about two demands, the first requirement: Granada, the origin of its name, its location, and its history. As for the second demand, he talked about, the establishment of the Banu al-Ahmar state in Granada. In the second topic, the researcher talked about: (The siege of Granada and its fall), in which there was talk of two demands, the first demand: the siege and surrender of Granada. As for the second requirement, he talked about: the reasons and factors behind the fall of Granada.

Key words: Andalusia, Granada, Beni al-Ahmar, Castle.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

يُعد عصر بني الأحمر في غرناطة عصر الصمود والدفاع من أجل الوجود العربي في الأندلس، هذا الوجود الذي انحصر في غرناطة وما حولها مثل مالقة والمرية ووادي آش في جنوب شرق الأندلس، وهي منطقة صغيرة جداً بالقياس إلى مساحة الأندلس العامة[1]، استمرت مملكة غرناطة أكثر من قرنين ونصف قرن الأرض الوحيدة في شبه جزيرة إيبيريا التي ظلت تخضع لسلطان حاكم مسلم[2] في وجه أعتى حركة وطنية ظهرت في العصور الوسطى، وهي الحركة الوطنية الإسبانية التي عُرفت باسم حركة الاسترداد، التي استفادت من انحسار القوة الموحدية في المغرب والأندلس، وغياب الدولة الواحدة القوية في المغرب الكبير، الذي أصابه ريح التجزؤ بعد سقوط دولة الموحدين[1]. واستولى جد الأسرة النصرية (أو بنو الأحمر) ومؤسسها محمد الأول الغالب بالله، على غرناطة سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧ – ١٢٣٨م) وشيد قلعة أطلق عليها اسم الحمراء واتخذها قصراً له. ورضي في الوقت نفسه أن يؤدي الجزية باعتباره تابعاً لفرديناند

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الأول ملك قشتالة، ثم لخلفه ألفونسو العاشر. وظلت غرناطة تحتفظ بشيء من هيبتها بوصفها عاصمة، وبفضل آثارها وندواتها الأدبية التي برز فيها رجال من أمثال لسان الدين بن الخطيب. وفي القرن التالي، ومع ظهور الملكين الكاثوليكيين فرديناند الأراغوني وإيزابيلا ملكة قشتالة، أصبح هجوم النصارى يتم في تناسق تام ويوجه على نطاق واسع[2].

وفي اختلال ميزان القوى لصالح الإسبان وعزل غرناطة جغرافياً عن الديار الإسلامية، زحفت الجيوش المسيحية في عام ١٤٩١م التي تمثل كل الممالك الإسبانية التي أعلنت اتحادها وبمشاركة أوروبية، وفرضت حصاراً محكماً حول آخر المدن الإسلامية في إسبانيا لعدة أشهر، تدهورت خلالها الأوضاع الإنسانية في المدينة الأكثر رقياً في أوروبا في ذلك العصر، مما اضطر آخر سلاطينها أبوعبدالله الصغير لتسليم المدينة في الثاني من كانون الثاني عام ١٤٩٢م، وبذلك طويت آخر صفحة من الوجود العربي الإسلامي في الأندلس[3].

ونظراً لقلة المراجع الحديثة التي تناولت تاريخ هذه الدولة أو جزءاً منه بالتفصيل والشرح والتحليل المطلوبين، فقد قمت باختيار موضوع البحث بعنوان " سقوط دولة بني الأحمر في غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس بيد الإسبان".

منهج البحث:

يسعى الباحث من خلال البحث لاستخدام المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، وذلك بالرجوع إلى المراجع والمصادر الرئيسية التي تدفع لإنجاح البحث.

أهداف البحث:

تتمثل أهداف البحث في الآتي:

(١)التعريف بدولة بني الأحمر من حيث جغرافية بلادهم، والظروف التاريخية التي سبقت قيام دولتهم، وجهودهم في سبيل إقامتها.

(٢)ذكر سير أهم قادة الدولة الذين نسجوا خيوط التاريخ في الفترة الخاصة من حكم هذه الدولة. (٣)إبراز الأسباب والعوامل الكامنة وراء سقوط هذه الدولة وإظهار دور الخلافات الداخلية والتنافس على السلطة في تقويض الدول وانهيارها.

حدود البحث:

أولاً: الجانب المكاني: ستركز الدراسة على فترة حكم بنو الأحمر في غرناطة.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ثانياً: الجانب الزماني: تبدأ الدراسة من بداية استيلاء محمد الأول على غرناطة سنة ٦٣٥هـ، حتى نهاية سقوط غرناطة، أي الفترة الواقعة بين عامي (٦٣٥هـ – ٨٩٧هـ/ ١٢٣٧م – ١٤٩٢م).

هيكل البحث:

ملخص البحث

المقدمة

المبحث الأول: نبذة تاريخية عن غرناطة.

المطلب الأول: غرناطة: أصل تسميتها، موقعها، وتاريخها.

المطلب الثاني: قيام دولة بني الأحمر في غرناطة.

المبحث الثاني: حصار غرناطة وسقوطها.

المطلب الأول: حصار واستسلام غرناطة.

المطلب الثاني: الأسباب والعوامل الكامنة وراء سقوط غرناطة.

الخاتمة: متضمنة أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة

المبحث الأول: نبذة تاريخية عن غرناطة

المطلب الأول: غرناطة: أصل تسميتها، موقعها، وتاريخها

تسمى غرناطة أو إغرناطة، وكلاهما أعجمي، وقيل الصواب إغرناطة بالهمزة – معناها بلغتهم الرمانة[4]. وغرناطة أو إغرناطة اسم قديم يرجع إلى عهد الرومان والقوط، وقد اختلف آراء الباحثين في أصل هذه التسمية، فيرى البعض أنه مشتق من الكلمة الرومانية (Granata) أي الرمانة، وأنها سميت كذلك لجمالها، ولكثرة حدائق الرمان التي تحيط بها، ويرى البعض أن التسمية ترجع إلى أصل قوطي أو أنها ترجع إلى أصل بربري، مشتق من اسم إحدى القبائل[5].

كانت غرناطة (إغرناطة) في الأصل – قبل الفتح الإسلامي للأندلس- مدينة صغيرة قرب مدينة إلبيرة، عاصمة الولاية أو الكورة التي تعرف بنفس الاسم. بمرور الزمن حلت غرناطة محلها، حتى غدت قاعدة إحدى إمارات الطوائف، ثم حاضرة مملكتها. وتقع مدينة غرناطة على وادي (نهر) شنيل أحد فروع الوادي الكبير[6]. وتحدها من الشمال لآيات قرطبة وجيان والبسيط، والبحر من الجنوب، ومن الشرق ولايتا ألمرية ومرسية، ومن الغرب ولاية مالقة. وتخترقها وتظلها

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

جبال سيرانفاد (جبل الثلج)، ويرويها نهر الوادي الكبير، وفرعه نهر شنيل، وكذلك نهر ريوجراندى الصغير. وجوها حار ولا سيما في الوديان المنخفضة، وبارده في التلال، وتربتها خصبة جداً، ولا سيما في الغرب والجنوب. وفي شرقها تمتد سهول واسعة معظمها جرداء. وتضم من المدن عدا غرناطة، بسطة، وأشكر، ووادي آش، وسنتافيه (شنتفي)، ولوشة، وحصن اللوز، ومونتي فريو، والحامة، وأجيجر، وأرحبة، والمنكب، وشلوبانية، ومتريل[7]. أما سكان مملكة غرناطة فكان عددهم يساوي، على صغر رقعتها، عدد سكان ما تبقى من الجزير الإيبيرية أو يقاربه. وكانوا جميعاً مسلمين إذ لم تبقى بينهم أقليات نصرانية، كما أن اللغة الأعجمية اندثرت وأصبحت اللغة العربية بلهجتها الأندلسية هي لغتهم الوحيدة، بينما لم تكن الإسبانية سوى لغة أجنبية. وكانت مملكة غرناطة هي ملجأ الأندلسيين المدجنين وغيرهم، فحدودها دائماً لهم، وتستقبل كل سنة عدداً كبيراً من المهاجرين من الشمال ومن المجاهدين من المغرب[8].

أما تاريخ هذه المدينة؛ ففي أواخر القرن الهجري الأول، فتح المسلمون مدينة غرناطة أثناء سيرهم لاستكمال فتح بلاد الأندلس، فسكن ولايتها أهل دمشق، عندما نزل أهل الشام تلك البلاد، فشابهت أحوالها أحوال بلادهم، فسميت بشام الأندلس[9]. كانت غرناطة وقت افتتاح الأندلس، مدينة صغيرة من أعمال ولاية ألبيرة تقع على مقربة من مدينة قاعدة الولاية، من الناحية الجنوبية، افتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط، بقيادة طارق بن زياد فاتح الأندلس في موقعة شريش في رمضان سنة ٩٢هـ (يوليو سنة ٧١١م). ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس، ودب الخلاف من القبائل، عقب موقعة بلاط الشهداء (٧٣٢م) واشتد التنافس على الإمارة بين الشاميين من ناحية، والعرب والبربر من ناحية أخرى، رأى أمير الأندلس أبوالخطار حسام بن ضرار الكلبي، أن يعمل على تهدئة الفتنة بتوفيق عصبة الشاميين، ففرقهم في أنحاء الأندلس، وأنزل جند الشام بكورة ألبيرة، وجند حمص بإشبيلية، وجند فلسطين بشذونة والجزيرة، وجند الأردن بريُه، وهكذا نزل الشاميون منذ البداية بولاية ألبيرة، وغدوا بمضي الزمن كثرة فيها. واستمرت ألبيرة قاعدة لهذه الولاية ومركز قضائها في ظل الدولة الأموية، حتى أواخر القرن الرابع حينما انهارت الخلافة الأموية وتعاقبت الفتن، وعاث البربر في النواحي، وخربت مدينة ألبيرة شيئاً فشيئاً، حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها، ومن ذلك الحين يختفي اسم ألبيرة كقاعدة من قواعد الأندلس، ويذكر مكانها اسم غرناطة. والواقع أن ألبيرة وغرناطة تعتبران في معظم الأحيان ولاسيما في المراحل الأولى لتاريخ الأندلس، اسمين لمكان واحد، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزاج بينهما[5].

وفي عام ١٠١٣م سقطت غرناطة في أيدي بني زيري فاتخذوها عاصمة لدولتهم في عهد ملوك الطوائف. وشهدت غرناطة طيلة حكم ملوك بني زيري الأربعة مرحلة استقرار دامت ثمانين عاماً قبل أن يستولى عليها المرابطون عام

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

١٠٨٩م، ثم الموحدون عام ١١٤٦م. وبعد انتهاء سلطة الموحدين في الأندلس، مرت بلاد الأندلس الإسلامية بمرحلة تفكك ظهرت خلالها عدة دويلات أبرزها دولة ابن هود الذي سيطر على غرناطة بين الأعوام ١٢٣١ – ١٢٣٧م. وفي ظل هذه الأوضاع المضطربة إذ الوجود العربي آخذاً في الانهيار تحت الضغط المسيحي الأوروبي المتصاعد في القرن الخامس عشر، استطاعت أسرة عربية من بني نصر (بني الأحمر) من إقامة سلطنة إسلامية مزدهرة ضمت غرناطة وما يجاورها من المدن، أرسى دعائمها محمد بن نصر[3].

المطلب الثاني: قيام دولة بني الأحمر في غرناطة:

دولة بني الأحمر (بني نصر) التي قامت في غرناطة في سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، وانحصر ملكها في الركن الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة إيبيريا، حيث جبال البشرات، وجبال شلير، التي كونت منها قلعة حصينة يشعل الدفاع عنها. قامت هذه المملكة النصرية التي تمثل آخر عهد للحكم الإسلامي بالأندلس، على يد قائد عربي أندلسي[10] هو أبوعبدالله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي. يرجع نسبه إلى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان "نقيباً، شهد العقبة وبدراً". ولد محمد بن يوسف في مدينة أرجونة، من حصون قرطبة في جهة الشرق، سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥م)، وهو عام الأرك. كان جندياً وافر العزم والجرأة، دعا للم الشمل، فاجتمع حوله الكثير. دخلت في طاعته عدة مدن، لاسيما في وسط الأندلس، قبل سنة ٦٣٠هـ، ثم كانت بيعته، أميراً لمملكة غرناطة، يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٦٣٥هـ[6]. وعُرفت أسرته في التاريخ ببني نصر نسبة إلى نصر بن قيس من سلالة الصحابي الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج رضوان الله عليه، مما أضفى لهم علاقة في المجد وصالة في النسب. كما عُرفت ببني الأحمر نسبة إلى أحد أجدادهم، وربما هو والد مؤسس الدولة؛ إذ كان محمد بن يوسف يدعى بابن الأحمر، وقد أشار البعض إلى أن ذلك يعود لنضارة وجهه واحمرار شعره[9]. حكم بنو الأحمر غرناطة، وراثة. تولى حكمها – خلال القرنين والنصف – حوالي عشرين من الأمراء، الذين أطلق على كل واحد منهم "أمير المسلمين". وقد يعرف أحدهم "الغالب بالله"، حيث كان شعار الدولة "لا غالب إلا الله"[6]. ومملكة غرناطة تشمل ثلاث ولايات كبيرة: ولاية غرناطة في الوسط، وولاية ألمرية في الشرق، وولاية مالقة في الجنوب. وهذه هي المنطقة التي استطاع بنو الأحمر الاحتفاظ بها ما يقارب قرنين ونصفاً من الزمان[11].

استمرت الدولة الموحدية في المغرب تواجه القوى الناهضة حتى عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦١م حيث ورثتها دولة بني مرين. أما في الأندلس فقد ضعفت القوات الموحدية أمام هجمات الممالك الإسبانية، وسقطت أهم حواضر الأندلس بيد

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الإسبان، لذا رأى أهل الأندلس أنه لابد لهم من القيام بعمل دفاعي يحفظ لهم ما بقي من بلدهم، ولهذا ظهرت زعامات محلية أندلسية[11] أبرزها دولة ابن هود الذي سيطر على غرناطة بين الأعوام ١٢٣١ – ١٢٣٧م[3]. ونظراً لكثرة هجمات الممالك الإسبانية على قواعد المسلمين أولاً، ولعجز محمد ابن هود في صد هذا العدوان. تطلع السكان إلى قيادة محمد بن يوسف بن الأحمر في حصن أرجونة واعتبروه المنقذ والقائد المنتظر الذي سيخلص البلاد من خطر الإسبان. فأعلن ابن نصر ثورته في عام ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م في حصن أرجونة، فدخلت في طاعته وادي آش وبسطة وشريش وجيان وقرطبة وقرمونة. وتسمى ابن نصر على ذلك بأمير المسلمين وخطب للخلافة العباسية منافساً في ذلك لابن هود. أدرك ابن هود مدى خطورة قيام ابن نصر ودخول بعض البلاد في طاعته، فقد اعتبره ابن هود خارجاً عنه من ناحية، ومزاحماً له في حكم الأندلس من ناحية أخرى. فقامت بينهما الحروب وحلت الهزيمة بابن هود ثلاث مرات آخرها في عام ٦٣٣هـ أو ٦٣٤هـ. بدأت دولة ابن نصر بالاتساع على إثر وفاة ابن هود في عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، فأول المدن المهمة التي دخلت في طاعته مدينة غرناطة في هذا العام نفسه. وفي العام نفسه سيطر ابن نصر على مدينة ألمرية، وفي عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م أعلنت مدينة مالقة الولاء والطاعة لابن نصر[11]. لكن فرناندو الثالث ملك قشتالة شن هجوماً على جيان وأخضعها لسلطته، ولم يتمكن ابن الأحمر من إنقاذها، فسعى إلى إقامة صلح مع الملك القشتالي، فقبل الملك القشتالي بشرط أن يعترف به كسيد له، ولكن ابن الأحمر استطاع أن يحصل من الملك القشتالي على اعتراف بالغ الأهمية، تجلى بالاعتراف به أميراً على كل المناطق التي كانت تحت سيارته باستثناء مدينة جيان التي بقيت تحت سلطة الملك القشتالي فرناندو الثالث[1].

وعندما دخل محمد بن الأحمر غرناطة في عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م أقام في قصبة بني زيري الواقعة في مدينة غرناطة نفسها، وبسبب الظروف الصعبة التي عاشتها الأندلس كان لابد أن يختار ابن الأحمر مقراً لسلطته في موقع استراتيجي منيع، فوق اختياره على معقل حصين يقع فوق قمة تل سبيكة المشرف على غرناطة، واكتملت الاستعدادات لإنشاء قصور الحمراء بعد أشهر قلائل من إعلان ابن الأحمر سلطاناً على غرناطة، وكان المبنى الجديد مختلفاً عن الحصن القديم في وسائل وسعته وجوانبه، فالحمراء ليس قصراً بل مجموعة قصور وقلاع تشكل عاصمة دولة بني نصر (دولة بني الأحمر)، فقد احتجت فضلاً عن القصور السلطانية على المصالح الحكومية والإدارية وداراً لضرب المسكوكات وثكنات للحرس والحجاب والمراسلين وما يحتاج إليه العامة من صناعات حرفية وحوانيت وحمامات ومساجد[3].

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

سارع محمد بن الأحمر منذ توليه حكم غرناطة في عام (٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م) إلى قطع دعوته بالسلامة العباسية – بسبب ضعفها وبعدها – والدعوة للخليفة الرشيد الموحدي في المغرب وتوثيق العلاقة معه، وإرسال البيعة له عام (٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م) بعدما أخذها من أهل غرناطة ومالقة وجيّان وسائر البلاد التي كانت تحت طاعته، فتقبلها الرشيد بالقبول الحسن، وأرسل خطابات الشكر والرضا على ما قام به، فاستغربت ابن الأحمر على طاعته حتى وفاته، ثم حول الدعوة إلى إفريقيا (تونس) أبي زكريا الحفصي، التي بدأت دولته تقوى مع الأيام، وبعث بيعته مع وفد مشايخ مملكته كان على رأسهم أبوبكر ابن عياش شيخ مالقة، فاستقبلهم الحفصي ورحب بهم، ثم بعث الأموال ليستعين بها ابن الأحمر في الجهاد ضد أعدائه الكفار، وظل ابن الأحمر يخطب له عدة سنوات حتى أطلق نفسه من عقال الطاعة واستقل بملكه[9] واستمر ابن نصر (ابن الأحمر) يدعو للحفصيين حتى عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) فقطعهما عنهم وهي سنة وفاة الأمير الحفصي أبي زكريا، وتَسمى ابن نصر بعدها بأمير المسلمين[11].

لم يستطع ابن نصر الوقوف في وجه الإسبان أو رد غزواتهم المتواصلة على الأندلس، فقد الصلح مع ملك قشتالة فرناندو الثالث في عام ٦٤٣هـ/ ١٢٤٦م، وجاء فيه: أن يتنازل ابن نصر لملك قشتالة عن مدينة جيّان وأحوازها، وأن يعترف ابن نصر بالولاء والطاعة لملك قشتالة وأن يدفع له مائة وخمسين ألف دينار، وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة النيابي بصفته من الأمراء التابعين للملك الإسباني[11]. وكانت سياسة ابن الأحمر مبنية على الاتصال الوثيق بلوك بني مرين في المغرب الأقصى، وتوطيداً لتلك الصداقة جعل اسمهم مقروناً باسمه في خطبة الجمعة في كافة أنحاء بلاده. وفي سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) نشبت حرب بينه وبين حليفه السابق ملك قشتالة المسيحي الذي غزا مملكة غرناطة، ولكنه هزم هزيمة شديدة، وأُقصي إلى خارج الحدود[12]، وتوفي محمد بن الأحمر في التاسع والعشرين من جمادي الثانية سنة ٦٧١هـ (ديسمبر ١٢٧٢م) على إثر سقطة من جواده، حين عوده من معركة رد فيها جمعاً من الخوارج الذين حاولوا الزحف على الحمراء في منتصف جمادي الثانية من العام المذكور، فحمل جريحاً إلى القصر وتوفي بعد ذلك بأسبوعين، وقد قارب الثمانين من عمره، ودفن بالمقبرة العتيقة بأرض السبيكة. وكانت مملكة غرناطة قد توطدت دعائمها نوعاً[13]، وبعد وفاة محمد بن نصر (بن الأحمر) خلفه ابنه محمد بن محمد بن نصر المعروف بمحمد الثاني الفقيه (٦٧١ – ٧٠١هـ/ ١٢٧٣ – ١٣٠٢م) وقد كان هذا الرجل قريباً من أبيه في الصفات[14]، وكان عالماً فقيهاً محباً للعلوم؛ فلم يلبث حاكم قشتالة أن غزا تلك المملكة ثانية في سنة ١٢٧٤م بقيادة قائد يسميه العرب دون نُونُو، غير أن محمداً بمساعدة ملك بني مرين هزمهم في معركة قتل فيها قائد الجيش القشتالي نفسه. وبعد إحدى عشرة سنة نشبت حرب أخرى بين ملك قشتالة والمسلمين وقد دامت هذه المرة حتى نهاية تلك المائة

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

سنة، ولكن محمداً انتصر في تلك المعارك انتصاراً لا يقل روعة عن انتصاره الأول، وتوفي في سنة ١٣٠٢م بعد أن حكم ٣٠ سنة حكماً عادلاً تمتعت فيها البلاد بالرغد والرفاهية[12]. ولم يكن الفقيه ليقل كفاية عن أبيه، فقد تمكن خلال الفترة الطويلة التي حكمها (٦٧١ – ٧٠١هـ/ ١٢٧٣ – ١٣٠٢م) من أن يحافظ على مملكته ويزيد من قوتها، وإن كنا نلاحظ أنه لجأ إلى أمر سيلجأ إليه ملوك غرناطة بين الحين والحين، وهو التخوف من بني مرين ومحاولة الانضمام إلى ملوك قشتالة ضدهم، مما أدى في النهاية إلى وقوع النور بين المرينيين وبني نصر، وكان في النهاية وبالاً على مصير الإسلام في الأندلس، ونشير هنا إلى حقيقة تجلت أكثر من مرة خلال هذا التاريخ، وهي أن أكثر ما آذى الإسلام في الأندلس هو خلاف المسلمين بعضهم مع بعض، فقد كان ذلك أشد وطأةً عليهم من أي خطر آخر. وعندما توفي محمد الفقيه سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠٢م ترك لابنه وخليفته أبي عبدالله محمد الثالث الملقب بالمخلوع مملكة قوية زاهرة، وإن أحاط بها الأعداء من كل جانب، وجثمت فوق صدرها المصاعب من كل نوع[14].

وظل الصراع الإسلامي المسيحي محتدماً طيلة العهد النصري، فقد شُكلت مهارة سلاطين بني نصر الدبلوماسية عاملاً أساسياً في إطالته، من خلال عقد التحالفات مع حكام هذه الدولة أو تلك حيناً، أو بالاعتماد على قدراتهم البشرية والاقتصادية الذاتية حيناً آخر. فيما تعاقب على عرش مملكة غرناطة سبعة عشر سلطاناً جميعهم من بني نصر، في حقبة تاريخية حافلة بالصراعات الخارجية والأزمات الداخلية، إذ لم تنعم هذه المملكة بالاستقرار النسبي إلا في عهدي السلطانين يوسف الأول (٧٣٣ – ٧٥٥هـ/ ١٣٣٣ – ١٣٥٤م) وابنه محمد الخامس (٧٥٥ – ٧٩٤هـ/ ١٣٥٤ – ١٣٩٢م)، ففي عهديهما استعادت غرناطة ٦نصر المبادرة فاسترجعت الأراضي التي سلبها الإسبان في زمن سابق، كما عرف عن هذين السلطانين تشجيعهما للفنون والأعمار إذ بنيت في عهديهما معظم قصور الحمراء وزينت بأجمل الزخارف فضلاً عن معالم عمرانية أخرى لازالت قائمة إلى اليوم بغرناطة[3].

بعد اغتيال يوسف الأول عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م مرت مملكة بوضع مضطرب توالى على عرشها أمراء ضعاف لم يكونوا بمستوى المسؤولية، قد خلع بعضهم أكثر من مرة. كما وحدت الممالك الإسبانية جهودها من أجل استيفاء مملكة غرناطة وتوزيع تركتها فيما بينهم، وبارك البابا هذه الخطوة، إلا أنها تعثرت فترة من الزمن. وفي الوقت نفسه عقد صلح بين مملكة غرناطة وبين الممالك الإسبانية أراغون وقشتالة، كالصلح الذي عقده السلطان محمد السادس (الغني بالله) (٧٩٥هـ – ٨١٠هـ/ ١٣٩٣ – ١٤٠٨م) مع ملك قشتالة. وفي عهد يوسف الثالث (٨١٠ – ٨٢٠هـ/ ١٤٠٨ – ١٤١٧م) جدد الهدنة مع مملكة قشتالة لمدة سنتين، وبعدها رفض القشتاليون تجديد الهدنة، فسيطروا على بعض الحصون وأصبح هذا السلطان تابعاً لهم. تبع يوسف الثالث عدة أمراء اختلفت قدراتهم بين القوة والضعف، وفي عهدهم

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
العدد الرابع عشر : ص.ص448-472 ISSN:2958-8537 Issue: N14
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

دخلت مملكة غرناطة في حروب جهادية مع مملكة قشتالة الإسبانية خسرت فيها غرناطة بعض القواعد والحصون المهمة[11].

ظلت مملكة غرناطة قائمة، إلى أن تولى أمرها [15] أبوعبدالله الصغير ولايته الأولى (٨٨٧ – ٨٨٨هـ/ ١٤٨٢ – ١٤٨٣م) الذي خاض معركة حامية ضد جيوش قشتالة فهزمهم، ثم قاد جيشاً آخر فاتحه نحو قرطبة، وانتصر في عدة معارك، إلا أنه أُسر في معركة عند قلعة اللسانة وأخذ أسيراً وتولى أمر غرناطة والده أبوالحسن علي (٨٨٨ – ٨٩٠هـ/ ١٤٨٣ – ١٤٨٥م). ثم أطلق سراح أبي عبدالله الصغير عام ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م بعد توقيع اتفاق لصالح قشتالة. وتولى أمر غرناطة أبوعبدالله الزغل (٨٩٠ – ٨٩٢هـ/ ١٤٨٥ – ١٤٨٧م) ثم عاد أبوعبدالله الصغير مرة ثانية إلى عرشه (٨٩٢ – ٨٩٧هـ/ ١٤٨٧ – ١٤٩١م). وخلال هذه الأحداث هاجمت القوات القشتالية مدينة لوشة مرة أخرى فدخلتها في عام ٨٩١هـ بشروط لصالح قشتالة، ثم قامت حروب أسرية بين العم (الزغل) وابن أخيه (أبي عبدالله الصغير) انتهت بتقسيم غرناطة[11]. وهكذا انقسمت المملكة الإسلامية الصغيرة إلى قسمين متخاصمين في الوقت الذي توحدت فيه أراغون وقشتالة (١٤٧٤م). ورأى القشتاليون في ذلك فرصة سانحة للتدخل[8]. فسقطت لوشة عام ١٤٨٦م، وبالش- مالقة وألمرية في العام التالي، وبسطة عام ١٤٨٩م. وأخيراً استسلمت غرناطة للملكين الكاثوليكيين في ٢ ربيع الأول عام ٨٩٧هـ (٣ يناير سنة ١٤٩٢م)[2].

المبحث الثاني: حصار غرناطة وسقوطها

المطلب الأول: حصار واستسلام غرناطة

بعد صراع إسلامي – مسيحي طويل لم يهدأ إواره طيلة ثمانية قرون منذ الفتح الإسلامي للأندلس وبلغ ذروته في العهد النصري الذي سطر الصفحات الأخيرة الأكثر إشراقاً لتلك الحقبة الإسلامية المفعمة بالمجد[3]. وبعد اتحاد دولتي فرناندو وإيزابيلا سعياً إلى الحصول على موافقة البابا انوسنت الثامن بإعلان الحرب الصليبية على مملكة غرناطة. وقد تم ذلك فعلاً فما أن أعلن البابا تلك الحرب حتى هيئ ملوك أوروبا إرسال الفرق العسكرية لمساعدة الإسبان كان من بينها فرقة انجليزية[16]. فبعد سيطرة الإسبان على المناطق المحيطة بغرناطة، بدأ حصار المدينة في ١٢ جمادي الثاني ٨٩٦هـ/ ٢٣ نيسان ١٤٩١م الذي استمر سبعة أشهر، إذ عسكر الجيش على ضفاف نهر شنيل على بعد مسافة تقدر بفرسخين من المدينة، وبدأ الجيش بإتلاف المزارع وتخريب القرى والقلاع بنى الملكان الكاثوليكيان مدينة عسكرية سميت سنتفي (Santafe) ومعناها الإيمان المقدس أو العناية المقدسة، وكان بناء تلك المدينة إشارة إلى أن الحصار

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

سيطول ولابد من مدينة تحمي الجيش من برد الشتاء، فضلاً عن التأثير النفسي على سكان غرناطة، لأنه يعكس إصرار الملكان الكاثوليكيان على استئصال الوجود الإسلامي بشكل نهائي[17].

بعد سقوط الحصون والمدن الأندلسية بيد الإسبان لم تبقى سوى غرناطة، فأرسل الإسبان إلى السلطان أبي عبدالله يطلبون إليه تسليم غرناطة وفقاً لشروط معينة، فجمع السلطان أعوانه وأجمعوا على الرفض[11]. وكان في تلك يقاتل المسلمين ويقاتلهم قتالاً شديداً، وقد حارب ملك الروم القرى المحيطة بغرناطة، وأخذها جميعاً إلا قرية الفخار، واستعمل الحيلة مرة، والقتال الشديد مرات، وذلك ليسيطر عليها فلم يستطع، وقتل من الروم الكثير، حيث أن المسلمين دافعوا عنها باستماتة خوفاً من وقوعها، فتكون سبباً في إخلاء قرى الجبل، وبقتال المسلمين ذلك قصر عنها العدو لكثرة قتلاه، ولم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى كل يوم، في معظم البلاد التي على غرناطة، وفي كل ملحمة من تلك الملاحم يُثخن كثير من الفرسان المسلمين بالجراحات ويستشهد آخرون، ويقتل من النصارى أضعاف ذلك، والمسلمون فوق ذلك صابرون محتسبون واثقون، وظلت الحرب متصلة بين الطرفين سبعة أشهر حتى فنيت خيل المسلمين بالقتل، ورجالهم بالاستشهاد. وفي تلك الفترة رحل كثير من الناس إلى بلاد البشرة، لما أصابهم من الجوع والخوف، ومن بقى من الفرسان والأعيان أبلغوا أميرهم محمد بن علي بأنهم قد راسلوا أهل المغرب، ليمدوهم بالجند وينصرونهم بالجند، فلم يستجيبوا لهم، وطلبوا من أميرهم أن يطلب الأمان، وكان مما قالوا للأمير محمد بن علي: بعثنا لإخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب، فلم يأتنا أحد منهم، لنصرتنا وإغاثتنا، وعدونا يزداد قوة، ونحن نزداد ضعفاً، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا، فإن تكلمنا معه الآن قبل منا وأعطانا كل ما نطلب منه، وإن بقينا حتى يدخل الربيع تجتمع عليه جيوشه، ولا نأمل نحن على أنفسنا من الغلبة ولا على بلدنا منه[15].

ومع بداية شهر محرم من عام ٨٩٧هـ/ أواخر عام ١٤٩١م ونتيجة اليأس وانتشار الجوع والمرض، اجتمع أعيان المدينة واتفقوا على تسليمها، ما عدا القائد موسى الذي رفض القرار، وخرج من الاجتماع مغاضباً واختفى أثره، ثم أرسل الوزير أبوالقاسم بن عبدالملك للمفاوضة، وتم التوقيع على معاهدة التسليم فوردت في وثيقة مشهورة[11]. كانت شروط تسليم غرناطة تنص على أن صاحب روما يوافق على الالتزام والوفاء بالشروط، إذا مكّنوه من قصر الحمراء في غرناطة ومن المعاقل والحصون، ويقوم على عادة النصارى في العهود (عدم النكث في العهد)، وقام النصارى بإعطاء مال جزيل لرؤوس أجناد المسلمين، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط، قرأت على أهل غرناطة، فانقاذوا إليها ووافقوا عليها، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم، ونزل سلطان غرناطة قصر الحمراء، وفي (٢ ربيع الأول ٨٩٧هـ – ١٤٩٢م)، استولى النصارى على الحمراء بعد أخذ خمسمائة من أعيان غرناطة رهناً خوفاً من غدر المسلمين[15]، وكانت الشروط

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

سبعة وستين منها: تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يولي على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل، وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعياناً نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لملكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعُدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثمّ بعد تلك المدة يُعْطون عُشر مالهم والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يُقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على من قتل نصرانياً أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا مصلّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب روما ويضع خط يده[18].

تعهد الملكان الكاثوليكيان كتابةً – في المعاهدة بنفس تاريخ توقيعهما، ٢١ محرم ٨٩٧هـ (١٤٩١/١١/٢٥م) – "أن ملكي قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي، القيام بكل ما يحتويه هذا العهد من النصوص، ويوقعانه باسميهما ويمهرانه بخاتميهما[6]. أعطى أبوعبدالله محمد الثاني عشر أو محمد الصغير الموافقة بالتعليم للملكين فرناندو الخامس وإيزابيلا، ولم ينس أن يرسل إليهما بعضاً من الهدايا الخاصة، وبعد التسليم بأيام يدخل الملكان في خيلاء قصر الحمراء الكبير ومعهما الرهبان، وفي أول عمل رسمي يقومون بتعليق صليب فضي كبير فوق برج القصر الأعلى، ويُعلن من فوق هذا البرج أن غرناطة أصبحت تابعة للملكين الكاثوليكيين، وأن حكم المسلمين قد انتهى من بلاد الأندلس. وفي نكسة كبيرة وفي ظل الذل والصغار يخرج أبوعبدالله محمد بن الأحمر الصغير آخر ملوك المسلمين في غرناطة من القصر الملكي، ويسير بعيداً في اتجاه بلدة أندرش، حتى وصل إلى ربوة عالية تُطل على قصر الحمراء يتطلع منها إليه، وإلى ذلك المجد الذي قد ولّى، وبحزن وأسى قد تبدّى عليه لم يستطع فيه الصغير أن يتمالك نفسه، انطلق يبكي حتى بللت لحيته، حتى قالت له أمه "عائشة الحرة": أجل؛ فلتبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال. وإلى هذه اللحظة ما زال هذا التل – الذي وقف عليه أبوعبدالله محمد الصغير – موجوداً في إسبانيا، وما زال

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الناس يذهبون إليه، يتحملون موضع هذا الملك الذي أضاع مُلكاً أسسه الأجداد، ويعرف هذا التل بزفرة العربي الأخيرة، وهو بكاء أبي عبدالله محمد الصغير حين ترك ملكه. وقد تم ذلك في الثاني من شهر ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ/ ٢ من يناير سنة ١٤٩٢م[19]. وهو تاريخ حاسم في تاريخ الإسلام والغرب الأوروبي، وقد احتفلت به البلاد النصرانية كلها وأمرت البابوية أن تقرع كنائس أوروبا كلها احتفالاً بتلك المناسبة[14].

أما السلطان أبوعبدالله فقد استقر في أندرش مع أتباعه وأهله بعد تسليمه غرناطة، وكأنه في مملكة صغيرة. غير أن الملكين الكاثوليكيين لم يكونا مرتاحين لبقائه بالأندلس ويفضلان خروجه منها. ففي مارس سنة ١٤٩٣م وقعت مفاوضات جديدة بين الوزيرين السابقين أبي القاسم المليخ ويوسف بن كماشة وبين فراندو دي صفراء أمين الملكين الكاثوليكيين على الشروط التي يغادر بها السلطان أبوعبدالله وحاشيته الأندلس إلى المغرب، وتوصل الاتفاق بتعهد السلطان أبي عبدالله بالعبور إلى المغرب في موعد أقصاه أكتوبر سنة ١٤٩٣م، وتنازله عن جميع ضياعه في أندرش وباقي مناطق البشرات وجميع أملاكه في غرناطة وغيرها مقابل ثمن إجمالي قدره واحد وعشرون ألف دوقة قشتالية من الذهب الخالص، كما قبل التنازل عن جميع اختصاصاته، على أن يحمل إليه المال قبل رحيله بثمانية أيام. ووقع هذا الاتفاق بتاريخ ١٤٩٢/٤/١٥م. كتب الاتفاق بالقشتالية وذيله بالموافقة السلطان أبوعبدالله بالعربية بخط يده بعبارات ذليله مؤلمة. وكانت زوجة أبي عبدالله قد توفيت في أندرش، فغادر في أوائل أكتوبر سنة ١٤٩٣م بأهله وأتباعه من ثغر عذرة، كما غادر في الوقت نفسه عدد كبير من وزرائه وقواده ميناء المنكب إلى ميناء مليلة بالمغرب، ومنه إلى حاضرة فاس. كان عدد من هاجر مع السلطان أبي عبدالله إلى فاس ١١٣٢ شخص. وكان سلطان المغرب آنذاك أبوعبدالله الوطاسي[8].

لم تنته مصيبة المسلمين بزوال سلطانهم السياسي ورحيل سلطانهم إلى المغرب، بل حلت بهم مصيبة أكبر[11] بعد سنوات قليلة بدأ النقض لكل ما جاء في "معاهدة تسليم غرناطة"، عن قصد مسبق وتدبير مخطط، تعاونهما في ذلك السلطات الكنيسة وكافة المسؤولين. اتخذ هذا الترتيب – لحرب المسلم في عقيدته ونفسه – تدرجاً[6]، حيث نقض الملكان الكاثوليكيان العهد. ووضعا خطة إبادة للمسلمين الباقين في الأندلس لعقيدتهم الدينية، فشكلا محاكم التفتيش التي تتعقب من يؤدي شعائر الإسلام بأية صورة، فكان من جراء ذلك أن ظهر عدد من المسلمين المسيحية وبطنها الإسلام، وأطلق على هؤلاء اسم (الموريسكيون) أي المسلمين الصغار. وبقى المسلمون هؤلاء يقاومون الاضطهاد ما يزيد على القرن دفاعاً عن عقيدتهم وكيانهم[11]. كان هدف الملكين من تأسيس محاكم التفتيش سياسياً ومادياً مغطى بغطاء الدين. فهو سياسي لتشكيل دولة موحدة وإمبراطورية واسعة، بدأت بغزو غرناطة واحتلالها في سنة ١٤٩٢م وهي

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

السنة التي استطاع فيها كولمبس اكتشاف أمريكا وهو هدف مادي تصادر الأموال والأراضي من المتهم، ولذا نجد أن التلاعب وتلفيق الاتهامات قد تفشى لإبقاء مصدر مادي ينمي هذه الدولة الموحدة[20].

بدأت سياسة الاضطهاد لمسلمي غرناطة الذين دخلوا في جملة المدجنين أي المسلمين الذين دُجنوا في مواطنهم تحت حكم النصارى وقبلوا حكمهم، وقد ثار المسلمين على تلك المعاملة مرة بعد أخرى. ولكن الأمر انتهى بطرد بقاياهم من الأندلس سنة ١٦٠٩م، أيام الملك فيليب الرابع، وبذلك انتهت قصة الإسلام في شبه الجزيرة، وإن بقيت آثاره الحضارية ماثلة إلى اليوم[14]. هاجر في السنين الأولى من احتلال القشتاليين لغرناطة عدد جم من كبار أهلها وقوادها وفقهائها وعلمائها وساداتها وأعيانها، وباعوا أملاكهم لكبار القشتاليين المحتلين. فعبر بنو سراج إلى فارس، وعبر أشراف ألمرية إلى وهران ومنها إلى تلمسان، وأشراف الجزيرة الخضراء إلى طنجة، وأعيان رندة وبسطة إلى أحواز تطوان، كما هاجر أعيان لوشة وبعض أهل غرناطة ومرشانة وجبال البشرات إلى قبيلة غمارة بالمغرب، وجاز أعيان بيرة وبرجة وأندرش إلى منطقة طنجة، وأعيان بليش إلى سلا، وأعيان طريف إلى آسفى وآزمور، كما هاجرت أعداد كبيرة إلى بجاية وتونس وقابس وصفاقص وسوسة والمشرق[8].

المطلب الثاني: الأسباب والعوامل الكامنة وراء سقوط غرناطة

كانت عوامل وانحدار وسقوط وضياع الأمم قد تشابهت إلى حد كبير في كل فترات الضعف في تاريخ الأندلس، وهذه العوامل نفسها قد زادت وبشدة في فترة غرناطة ولذلك كان السقوط كاملاً وحاسماً[19]. كان الخلاف بين أبناء الأمة الأندلسية في تلك الآونة العصيبة يذهب إلى حد التضحية بأقدس المبادئ وأسمى الاعتبارات، وكانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة، ففي العام نفسه الذي سقطت فيه جيان بعد حروب غير مؤثرة بين المسلمين والنصارى، وفي سنة (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) وحماية لحقوق وواجبات مملكة قشتالة النصرانية وولاية غرناطة الإسلامية، يأتي فرناندو الثالث ملك قشتالة ويعاهد ابن الأحمر الذي يتزعم ولاية غرناطة، ويعقد معه معاهدة يضمن له فيها بعض الحقوق ويأخذ عليه بعض الشروط والواجبات[21].

وكانت بنود المعاهدة التي تمت بين ملك قشتالة وبين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر هذا هي:

(١)يدفع ابن الأحمر الجزية إلى ملك قشتالة، وكانت مائة وخمسين ألف دينار من الذهب سنوياً، وكان هذا تجسيداً لحال الأمة الإسلامية، وتعبيراً عن مدى التهاون والسقوط الذريع بعد أفضل نجم دولة الموحدين القوية المهيبة، والتي كانت قد فرضت سيطرتها على أطراف كثيرة من بلاد الأندلس وأفريقيا.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

(٢)أن يحضر اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس) باعتباره من الأمراء التابعين للعرش، وفي هذا تكون غرناطة تابعة لقشتالة ضمنياً.

(٣)أن يحكم غرناطة باسم ملك قشتالة علانية؛ وبهذا يكون ملك قشتالة قد أتم وضمن تبعية غرناطة له تماماً.

(٤)أن يسلمه ما بقي من حصون جيان – المدينة التي سقطت أخيراً – وأرجونة وغرب الجزيرة الخضراء حتى طوف الغار، وبذلك يكون ابن الأحمر قد سلم لفرناندو الثالث ملك قشتالة مواقع في غاية الأهمية تحيط بغرناطة نفسها.

(٥)وهو أمر في غاية الخطورة؛ وهو أن يساعده في حروبه ضد أعدائه إذا احتاج إلى ذلك، أي أن ابن الأحمر يشترك مع ملك قشتالة في حروب ملك قشتالة التي يخوضها أياً كانت الدولة التي يحاربها[21].

ولما اشتدت الحرب الأهلية بين المسلمين في شرق الأندلس، بعث فرناندو الثالث ولده ألفونسو إلى مرسية، واستولى عليها صلحاً في سنة ١٢٤٣م (٦٤٠هـ). ثم التفت إلى إمارة غرناطة الناشئة التي أخذت تنمو ويشتد ساعدها في ظل ابن الأحمر فأنتزع منها حصن أرجونة وعدة حصون أخرى، ووصلت قواته إلى أحواز غرناطة، ثم أرسل جيشه لمحاصرة جيان في العام التالي (سنة ١٢٤٥م)، وشعر ابن الأحمر أنه عاجز عن صد هذا السيل الجارف، فاضطر إلى عقد الصلح والانضواء تحت حماية ملك قشتالة حسبما فصلنا من قبل، وبلغ فرناندو الثالث بذلك ذروة القوة والسلطان وأضحت الأندلس الجنوبية كلها تحت حمايته ورهن مشيئته. وأخذ فرناندو في الوقت نفسه يتأهب لافتتاح إشبيلية أعظم قواعد الأندلس، وفي سنة ١٢٤٧م (٦٤٤هـ) بث قواته في أحواز إشبيلية فاستولت على معظم الحصون القريبة منها، وسير فرناندو في الوقت نفسه أسطولاً في مياه الوادي الكبير لكي يحول دون وصول الإمداد والمؤن إلى المدينة من ناحية البحر؛ وكان يتولى الدفاع عن إشبيلية نفر من الزعماء البواسل[13].

أوفى ابن الأحمر بالتزاماته هذه، وكان أكبر معين لفرناندو الثالث على سقوط إشبيلية في يده، وهي – يومئذ- أعظم القواعد الأندلسية قاطبة، وقد كانت العاصمة الثانية للأندلس بعد قرطبة، لاسيما في عصر الطوائف تحت حكم بني عباد. استطاع فرناندو الثالث أن يستولي على مدينة قرمونة حصن إشبيلية الأمامي بمعاونة محمد بن الأحمر، وفقاً للتحالف المعقود بينهما، ثم عمد بعد ذلك إلى افتتاح باقي الحصون القريبة من إشبيلية. واستطاع ابن الأحمر بنصحه وتدخله، أن يقنع معظم أصحابها بتسليمها لملك قشتالة، مقابل تعهده بأن يحقن دماء المسلمين، وأن يمنحهم شروطاً سخية، ولم تأت أواسط سنة ١٢٤٧م الموافقة سنة ٦٣٥هـ حتى كان ملك قشتالة قد استولى على جميع الحصون الأمامية لإشبيلية، وانتسف سائر البسائط والضياع القريبة منها، وبدأ النصارى حصارهم لإشبيلية في أغسطس ١٢٤٧م (جمادي الأولى سنة ٦٤٥هـ). التزام صاغر، وانتهاك لتعاليم الإسلام وشرائعه، وضرب لرابط النصرة والأخوة الإسلامية،

وموالاة للنصارى وأعداء الإسلام على المسلمين، ما كان من ابن الأحمر إلا أن سمع وأطاع، وبكامل عدته يتقدم فرسان المسلمين الذين يتقدمون بدورهم جيوش قشتالة نحو إشبيلية، ضاربين حصاراً طويلاً وشديداً حولها. وفي السابع والعشرين من شهر رمضان سنة (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) وبعد سبعة عشراً كاملة من الحصار الشديد، تسقط إشبيلية بأيدي المسلمين ومعاونتهم للنصارى، تسقط إشبيلية ثاني أكبر مدينة في الأندلس، تلك المدينة صاحبة التاريخ المجيد والعمران العظيم[21].

وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية الواقعة غربي ولاية الأندلس، وأخذت رقعة الدولة الإسلامية تنكمش بسرعة مروعة. وكان موقف ابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادي والأدبي، وكان معظمهم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية، وقد أيقنوا بانهيار سلطان الإسلام في الأندلس، يهرعون إلى احتذاء مثاله. وإلى الانضواء تحت لواء قشتالة، وكانت هذه المناظر المؤلمة تتكرر في تاريخ الأندلس منذ الطوائف، حيث نرى كثيراً من الأمراء المسلمين يظاهرون النصارى على إخوانهم في الدين، احتفاظاً بالملك والسلطان[5].

عند الحديث عن الأسباب التي أدت إلى سقوط غرناطة، فلابد من ذكر الانقسامات بين حكامها والخلافات السرية بينهم، فضلاً عن تخاذل القوى في العالم الإسلامي عن نصرة غرناطة، فكان سقوطها في سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م نتيجة طبيعية للظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت بالمملكة[17].

أخذت مملكة غرناطة تنحدر نحو نهايتها بشكل واضح، في الأيام الأخيرة من حياتها، لما اشتد تأثير العوامل المفتتة لوحدتها والمهلكة لقوتها. كان بعض هذا نتيجة لسوء تصرف بعض الحكام أو الشذوذ في تصرفهم. كذلك لهبوط الحال والانشغال بالنزاعات الداخلية وصرف الجهود في خصومات كانت أولى أن تتحد لتواجه العدو، في وقت كان العدو يقوى والنصير يقل[6].

إن تفكك الأسرة المالكة الكامل في غرناطة، وتشتت الطبقة المثقفة والحاكمة، وعدم ورع الجميع من التعاون مع العدو النصراني القشتالي للتغلب على خصمه المسلم، أدى كل ذلك أخيراً إلى سقوط غرناطة بعد جهاد طويل ومتواصل دام ما يقرب من القرنين. في سنة ٧٦٨هـ (١٤٦٣م) ثار أبوالحسن علي على والده الأمير سعد وخلعه ونفاه إلى ألمرية حيث مات من سنته، وصفا الجو لأبي الحسن بهذه الطريقة البغيضة. ومنذ البداية، دخل أبوالحسن في حروب أهلية مع أخويه، أبوالحجاج يوسف وأبوعبدالله محمد الزغل، اللذين نازعاه الملك، كل على حدة. ولما توفي أبوالحجاج بقى أبوعبدالله الزغل المنازع الوحيد. ورغم الحروب الأهلية، قام أبوالحسن أول أمره بتحصين الحصون وتنظيم شؤون البلاد،

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وتولى وزارته وزير أبيه أبوالقاسم بن رضوان بنيغش. وخرج الزغل إلى ملك قشتالة أنريكي الرابع يستنصره على أخيه. والتقى به في أرشذونة سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م)، فوعده بالعون والتأييد مقابل ولائه. فرد أبوالحسن على ذلك بغزو الأراضي القشتالية واسترجاع بعض المواقع المغتصبة، وفي تلك الأثناء ثارت مالقة على أبي الحسن واستدعت الزغل من قشتالة ونادت به ملكاً. وهكذا انقسمت المملكة الإسلامية الصغيرة إلى قسمين متخاصمين في الوقت الذي توحدت فيه أراغون وقشتالة (١٤٧٤م). وعندما لم يحسم السيف النزاع بين المملكتين المسلمتين تهادنتا إلى حين[8].

فالبيت المالك أصبح منقسماً على نفسه ومملكة قشتالة وأراغون توحدتا وعقدتا العزم على اقتحام آخر معقل إسلامي بالمنطقة والمغرب لم يعد قادراً على تقديم ما كان يقدمه من مساعدات بسبب أزماته السياسية والاقتصادية التي كان يمر بها آنذاك، وبدأت بذلك مرحلة جديدة تختلف جذرياً عن المرحلة السابقة. ابتدأت فصول هذا الصراع بمحاولات أبي الحسن (٩٦٨هـ – ٨٨٠هـ/ ١٤٦٤ – ١٤٨٥م) إنقاذ حصون المملكة أمام هجومات فيرناندو، إذ انقض هذا الأخير على حصن لوشة سنة ١٤٨٣م، لكنه انسحب أمام المقاومة العنيفة التي أبداها الأمير الغرناطي، غير أن هذا الأخير عندما رجع إلى غرناطة وجد العامة هناك قد انحازوا إلى ابنه أبي عبدالله (الصغير) فارتأى ألا يضيع جهوده في قتال ابنه فسار إلى مالقة حيث كان أخوه أبوعبدالله الزغل (الشجاع)، وفعلاً فقد استطاع رد الأخطار على مالقة. ورغم هذه الانتصارات فإن عامة غرناطة وقفوا ضده وظلوا في ولائهم لابنه أبي عبدالله. ويرجع سبب ذلك إلى سياسته الداخلية التي أثارت حوله كثيراً من السخط[22].

في أواخر سنة ٨٨٧هـ تولى عرش غرناطة محمد بن أبي الحسن علي، الذي يعرف باسم أبي عبدالله أو "بو ابديل" في النصوص النصرانية، وكان والده أبوالحسن علي قد تزوج على زوجته الحرة عائشة، زوجة نصرانية سميت ثريا وأبوعبدالله هذا هو ابنها، وكان أبوالحسن سلطاناً ضعيفاً محاطاً بالمصاعب، تنافست النساء في عصره على حيازة العرش لابنائهن، وطال النزاع بين أبي عبدالله الذي ذكرناه، وعمه أبي عبدالله محمد بن سعد، الملقب بالزغل أي الباسل أو الشجاع[14]. ولولا سوء سيرة أبي الحسن لتابعت غرناطة مقاومتها. غير أنه كان، رغم فروسيته، أسير هواه وملذاته، مما جعل الشعب ينفر منه. وكان وزيره يجاريه في ذلك. وكانت زوجته الأولى عائشة، ابنة عمه السلطان الأيسر، ووالدة أبي عبدالله محمد وأبى الحجاج يوسف. ثم تزوج أبوالحسن بفتاة نصرانية، أسلمت تحت اسم ثريا، وهي ابنة القائد القشتالي سانشو خمينس دي سوليس، وولدت منه ولدين سعد ونصر. ففضل أبو الحسن ثريا وولديها وأقصى ابنة عمه وولديها واعتقلهم في برج قمارش بقصر الحمراء. فزاد ذلك في انقسام المجتمع الغرناطي وسخطه عليه. ورأى القشتاليون في ذلك فرصة سانحة للتدخل. وفي ليلة من الليالي جمادي الثانية سنة ٨٨٧هـ (١٤٨٢م) استطاعت الأميرة عائشة

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الفرار من سجنها مع ولديها محمد ويوسف بمساندة بني سراج، وظهروا بعد حين في وادي آش حيث أعلن أبوعبدالله محمد العصيان على والده. فاغتنم النصارى فرصة هذه الحرب الأهلية الجديدة بين المسلمين لمهاجمة أراضي غرناطة. فأغاروا على حامة غرناطة، وهي مدينة غنية متوسطة في مملكة غرناطة، وملكوها في محرم سنة ٨٨٧هـ (١٤٨٢م) بعد أن قتلوا أهلها ونكلوا بهم. ثم زحف القشتاليون على لوشة، فردهم أبوالحسن بخسائر فادحة في جمادي الأولى سنة ٨٨٧هـ (١٤٨٢م). ولما رجع إلى غرناطة عزل وبويع مكانه ابنه أبوعبدالله محمد فانتقل إلى مالقة عند أخيه الزغل[8].

وبعد منافسات طويلة قرر فرناندو وإيزابيلا القضاء نهائياً على مملكة غرناطة، فسارا لحالها بقوات ضخمة[14]. وفي ربيع عام ٨٩٧هـ/ نيسان ١٤٩١م حاصر الملكان الإسبانيان مدينة غرناطة، وأنشأ المحاصرون مخيماً تحول إلى مدينة اسموها (سانتافي/ الإيمان المقدس). وقد خرج مقاتلو غرناطة عدة مرات لشل مخططات الإسبان وإفشالها، وكان على رأسهم موسى بن غسان الذي نسجت حوله الأساطير. ودام الحصار سبعة أشهر صمد خلالها الغرناطيون، وفشلت كل محاولات الاقتحام المتكررة[11]. قامت القوات الإسبانية خلالها بحرق البساتين والحقول المجاورة لغرناطة؛ مما تسبب في مجاعة رهيبة اضطر أهلها إلى أكل الكلاب والقطط وحتى خيولهم مما اضطرهم أخيراً على الاستسلام مقابل السماح للملك محمد الحادي عشر (أبي عبدالله الصغير) ومع من يريد من العرب المسلمين بمغادرة المدينة والبلاد نهائياً[16]. استسلم أبوعبدالله محمد، الملك الصغير، وسلم غرناطة، آخر حصن إسلامي في الأندلس[6]. وقد سقطت بالتسليم في يد الملكين الكاثوليكيين، فرديناند وإيزابيلا في الثاني من شهر ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ/ ٢ يناير سنة ١٤٩٢م[7].

كان التكاثر المادي وما يتبعه من ترف ولهو واستنزاف للطاقة وإبعاد للأمة عن عوامل النهضة الحقيقية – واحداً من تلك العوامل التي عملت عملها في سقوط غرناطة وفي خروج المسلمين جميعاً من إسبانيا أشنع خروج عرفه التاريخ[23]. كان الإغراق في الترف، والركون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها، والخنوع والدعة والميوعة، هي أولى العوامل التي أدت إلى تلك النهاية المؤلمة، وقد ارتبطت كثيراً فترات الهبوط والسقوط بكثرة الأموال والانغماس في الملذات، والميوعة الشديدة في شباب الأمة، والانحطاط الكبير في الأهداف[19].

وخلال العصر الغرناطي كله – باستثناء فترات قليلة – استمر منهاج التكاثر المادي والتنافس المعماري. ففي عهد محمد الخامس من بني الأحمر وصلت عمارة الأندلس غايتها، إذ اشتعلت الفتن بين مملكتي قشتالة وأراغون النصرانيتين، وانتهز محمد الخامس هذا الهدوء بين النصارى والمسلمين، وكان هو نفسه ميالاً للدعة، فارتقى بغرناطة – من الناحية المادية والمعمارية – حتى غدت أكثر الممالك رقياً وإزدهاراً ، ولم يعمد إلى استغلال الفرصة لتقوية بلاده وإعادة مجدها

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

بالتعاون مع بني مرين، فضلاً عن الاهتمام بالإسلام ودعوته وصناعة الرجال الأكفاء، بل صرف همه إلى النواحي الفنية والمعمارية وانصرف الناس تبعاً له إلى الآداب والفنون وعظمت العمارة في غرناطة، وتم ذلك كله في ظل تفكك أعدائه في قشتالة وأراغون، وقوته النسبية أمام ضعفهم. وبعد محمد الخامس توالى ملوك من بني الأحمر مرنوا على الترف والقصور الفارهة، ولم تكن لهم قوة أسلافهم الذين كانوا قريبين من مأساة سقوط الموحدين والمدن الأندلسية، وبالتالي كان لديهم شعور بالخطر والحذر " وكانت سنة الله ماضية" على نهجها الذي يعرفه أصحاب البصائر والفقه الحضاري، فقد زامن هذا الانحلال والترف الذي أصاب ملوك غرناطة أن سلط الله عليهم عدوهم فبدأت عوامل الوحدة والقوة تتجمع في أسبانيا النصرانية، وانتهت مسيرة الأحداث إلى أن تزوج فرديناند ملك أراجون من إيزابيلا ملكة قشتالة، واتحدت المملكتان فكان هذا الاتحاد أكبر انتقام من الله لهؤلاء الملوك المترفين الذين نسوا الله فنسيهم، وسلط عليهم عدواً يسلبهم ما أنفقوا فيه أعمارهم، ونسوا بسببه دينهم ورسالتهم[23].

لم يتغير الورعان السياسي والعسكري خلال ربع القرن الذي تلا وفاة محمد الخامس (٧٩٣ – ٨٢٠هـ/ ١٣٩١ – ١٤١٧م)، وهي المدة التي حكم فيها ثلاثة من الملوك هم: يوسف الثاني بن محمد الخامس، ومحمد السادس بن يوسف الثاني، وأخوه يوسف الثالث، وذلك لأن معاصري هؤلاء من ملوك قشتالة كانوا بدورهم ضعافاً، وانهمكوا في نزاعاتهم الداخلية إما مع منافسيهم على العرش أو مع النبلاء الثائرين. والحدث الوحيد الجدير بالذكر، خلال الأعوام الأولى من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، هو سقوط مدينة أنتقيرة في أيدي القشتاليين في (جمادي الآخرة ٨١٣هـ/ تشرين الأول ١٤١٠م). توفي يوسف الثالث في عام (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) وخلفه عدد من الملوك الضعاف لم يكونوا على مستوى المسؤولية، وانهمكوا في نزاعاتهم الداخلية وصراعاهم على العرش، أولهم ابنه أبوعبدالله محمد السابع الملقب بالأيسر، وشهد عهده تصاعد نفوذ أسرة عربية عريقة هي أسرة بني سراج، في ظل الاضطرابات الداخلية، وتولى أحد أفرادها ويدعى يوسف الوزارة، وخلفه ابنه عبدالبر. وقد اعتمد محمد السابع على بني سراج لمواجهة المؤامرات التي أطاحت مرتين بحكمه لينتهي الأمر بضعف مملكة غرناطة سواء في عهده أو في عهد خلفائه الذين خُلع بعضهم أكثر من مرة. والمعروف أن محمداً السابع الأيسر خُلع في عام (٨٣١هـ/ ١٤٢٨م) وخلفه ابن أخيه، محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالصغير، لمدة عامين وبضعة شهر، أعيد بعدها إلى الحكم للمرة الثانية في عام (٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م)، ثم خُلع بعد عامين (٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م) وورثه أبوالحجاج يوسف الرابع ابن المول، وكان شيخاً مريضاً، فحكم ستة أشهر فقط حيث توفي، وأعيد محمد السابع الأيسر إلى الحكم للمرة الثالثة. وتستمر المأساة الغرناطية، وتتباين روايات المصادر

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
ISSN:2958-8537 Issue: N14 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

حول تعاقب الحكام ومدة حكم كل منهم في جو من الغموض والتناقض، ولعل مرد ذلك يعود إلى سرعة التقلبات السياسية وتعاقب هؤلاء واعتلاء بعضهم الحكم أكثر من مرة[24].

وتكررت الهجمات القشتالية على غرناطة ما بين عامي (٨٥٩ – ٨٦١هـ/ ١٤٥٥ – ١٤٥٧م)، ولعل أخطر ما تعرضت له المملكة هو استيلاء القشتاليين على جبل طارق في (ذي القعدة ٨٦٦هـ/ آب ١٤٦٢م)، وبعد سقوط هذا المعقل أول خطوة ناجحة في سبيل قطع العلاقة بين مملكة غرناطة والمغرب الذي كانت تأتي منه المساعدات للمملكة المذكورة[24]. ولقد أنعم الله على غرناطة خلال حياتها الطويلة بظروف مناسبة لإعادة مجد الأندلس في ظل عوامل سلبية كثيرة أحاطت بخصومهم النصارى، وفي ظل قوة تمتع بها إخوانهم في الإسلام بنو مرين حكام المغرب الأقصى، الذين ساعدوهم في كثير من الأحايين. لكن الجانبين المريني والنصري، لم يخططا التخطيط السليم في ظل إدراك واع بالظروف المحيطة لمثل هذا الإنجاز العظيم. وبالتالي تعاونت عوامل السقوط التي انتظمت الأندلس من قبل على سقوط غرناطة[23].

وكان الضعف قد أدرك دولة بني مرين، ومضت مسرعة في طريق التفكك والانحلال، كما بلغت مملكة بني عبدالواد في تلمسان مراحل شيخوختها، وتراجعت قوة الحفصيين في تونس، فتوقفت نتيجة ذلك، المساعدات القادمة من شمالي أفريقيا، فتوجه الغرناطيون إلى دولة المماليك وأرسلوا سفارة إلى القاهرة تطلب مساعدة عاجلة من حكام مصر، لكن دولة المماليك لم تكن بدورها أفضل حالاً من مملكة غرناطة، أما القوة الإسلامية الوحيدة التي كان بوسعها أن تقدم المساعدة لغرناطة فهي دولة العثمانيين الفتية، والتي برزت على مسرح السياسة بوصفها أعظم القوى الإسلامية في شرقي البحر الأبيض المتوسط، ولكن العثمانيين كانوا منهمكين بفتوحهم في البلقان وصربيا بعد أن فتحوا القسطنطينية في عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) على يد السلطان محمد الفاتح. وهكذا شعرت غرناطة بأنها أضحت وحيدة في مواجهة عدوها القوي من دون حليف ولا ناصر[24].

ومهما كانت طبيعة الدوافع التي أدت إلى سقوط الأندلس لاشك أن التناحر الداخلي وإعلاء مصالح السلطة على مصالح الشعب كان أهمها[25]. وكان المأمول أن يدرس ملوك غرناطة ما أصاب المسلمين في الأندلس، وأن يقفوا على العوامل التي أدت بالأندلس إلى هذا المصير ويتجنبوها، لكن شيئاً ملموساً من ذلك لم يقع[23]. كل تلك الأسباب آنفة الذكر، كانت عوامل مباشرة وغير مباشرة لسقوط تلك الحضارة العظيمة، التي تغنى بها الشعراء وعاش المسلمون في ظلالها الوارفة ثمانية قرون. وأشرق نورها على أوروبا عندما كانت سادرة في ظلامها، فلم يشفع لتلك الحضارة أنها

كانت مسلمة، وأن أهلها مسلمين، فالقانون الإلهي ينسحب على الجميع دون محاباة، فسقطت مصداقاً لقوله عز وجل: (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) سورة الكهف آية ٥٩[15].

الخاتمة

بعد أن استعرضنا مباحث هذا البحث، نصل إلى النتائج الآتية:

(١)أن أبرز الأسباب التي أدت إلى ضعف وسقوط مملكة غرناطة هو التناحر الداخلي والصراع على السلطة والتنافس على الاستئثار بها كان أهمها.

(٢)تكرار الخلافات الداخلية التي أدت إلى تقدم الإسبان في الشمال نحو الجنوب فاغتنم النصارى فرصة هذه الخلافات بين المسلمين لمهاجمة أراضي غرناطة.

(٣)كانت الضغوط الخارجية سبباً في تفجر الصراعات الداخلية، وكان الصراع الداخلي والفتنة عاملاً جالباً للقوى الخارجية.

(٤)أن العلاقات بين أمراء غرناطة والقشتاليين علاقات مسالمة وانصياع ومساعدة، بينما كانت العلاقات بين أنفسهم قائمة على التحرز والحذر.

(٥)أن إنفاق الأموال في بناء الحصون والاستكثار من المرتزقة في حال الدفاع عن أنفسهم، والمبالغ التي دفعت للإسبان النصارى، حيث فرضتها لتفوقها، بجانب ما تنازل عنه بعض أمراء غرناطة الضعاف، من الحصون والمدن، كل ذلك كان يفت في عضد الأمة ويشكل خطراً مما قاد في النهاية إلى سقوطها.

(٦)أن المعاهدات والاتفاقيات التي كان يبرمها أمراء غرناطة مع الإسبان المسيحيين بعيداً عن شعب غرناطة وفيها من صور الخيانة الشيء الكثير ومن ضمنها التنازل عن المدن والحصون، والتعاون مع ملوك الأسبان ضد إخوتهم المسلمين.

(٧)مرت مملكة غرناطة بوضع مضطرب توالى على عرشها أمراء اختلفت قدراتهم بين القوة والضعف، وفي عهدهم دخلت المملكة في حروب مع الإسبان خسرت فيها بعض القلاع والحصون والمدن المهمة.

(٨)توحدت القوى النصرانية في إرادتها للقضاء على الإسلام في الأندلس بينما انعدم مغيث المسلمين من وراء البحر. أن سقوط مدينة جبل طارق ومالقة بيد القشتاليين كانت قاصمة الظهر لمسلمي غرناطة، حيث حال هذا الأمر دون

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وصول الإمدادات من عدوة المغرب إلى مملكة غرناطة. ضربة قاسية أصابت مملكة غرناطة المحتضرة حيث أضحت محصورة ومحرومة من المساعدات الخارجية.

(٩)يمكن للباحث في تاريخ دولة بني الأحمر وسياستها تجاه المملكة والممالك النصرانية، أن يعقد المقارنات بين الأحداث التي جرت في الماضي وبين ما يحدث اليوم في عالمنا العربي والإسلامي، لأن أسباب سقوط غرناطة والأندلس نراها اليوم حاضرة في زماننا، خاصة التناحر الداخلي والتبعية والاستقواء بالأعداء، فالتاريخ خير شاهد ومعلم.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

المراجع والمصادر

(١)علي أحمد، تاريخ الأندلس السياسي والحضاري في العصور الوسطى، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، ٢٠٢٢م.

(٢)ج. س. كولان، الأندلس، ترجمة: إبراهيم خُورشيد وعبدالحميد يونس وحسن عثمان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

(٣)حازم جساب محمد علي، جمالية التصميم الزخرفي الأندلسي لقصور الحمراء في غرناطة، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

(٤)خديجة قروعي، ظواهر اجتماعية (مسيحية وإسلامية في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر الإمارة (٩٢هـ / ٧١١م – ٣١٦هـ/ ٩٢٩م)، دار النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.

(٥)محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الرابع نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٩٧م.

(٦)عبدالرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢ – ٨٩٧هـ (٧١١ – ١٤٩٢م)، دار القلم، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.

(٧)محمد عبدالله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

(٨)علي المنتصر الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

(٩)خالد بن عبدالله الشريف، مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها (دراسة سياسية اقتصادية)، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

(١٠)عبدالله بن علي الزيدان، حمد بن صالح السحيباني، عبدالغفور بن إسماعيل روزي، صالح بن محمد السنيدي، وعبدالله بن إبراهيم العمير، ندوة الأندلس: قرون من التقلبات والعطاءات القسم الأول التاريخ وفلسفته، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

(١١)خليل إبراهيم السامرائي، عبدالواحد ذنون طه، وناطق صالح مطلوب، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

(١٢)السيد أمير علي، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م.

(١٣)محمد عبدالله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٦٦م.

(١٤)حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، القاهرة، مصر، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٠م.

مجلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/09/2023
Issue: N14 ISSN:2958-8537 العدد الرابع عشر : ص.ص448-472
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

(١٥)رامز إسماعيل طه الحلبي، عوامل سقوط الأندلس (٩٢هـ – ٧١١م/ ٨٩٧هـ – ١٤٩٢م)، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية غزة، ٢٠١٥م.

(١٦)عبدالعزيز حميد صالح، الإعلام عند العرب من المصادر التاريخية والأثرية، دار دجلة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.

(١٧)وجدان فريق عناد، معاهدة تسليم غرناطة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م دراسة تاريخية، مجلة دراسات تاريخية، العدد ٢٥، العراق، ٢٠١٨م.

(١٨)أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، حققه: إحسان عباس المجلد الرابع، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م.

(١٩)إيناس حسني البهجي، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحدين وحتى سقوط دولة بني الأحمر، دار التعليم الجامعي، الإسكندرية، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠١٥م.

(٢٠)بشرى محمود الزوبعي، محاكم التفتيش الإسبانية ١٤٨٠ – ١٥١٦م، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

(٢١)راغب السرجاني، قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ج١، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ٢٠١١م.

(٢٢)محمد زروق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦-١٧، مطبعة أفريقيا الشرق، الطبعة الثالثة، ١٩٩٨م.

(٢٣)عبدالحليم عويس، التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

(٢٤)محمد سهيل طقوش، تاريخ المسلمين في الأندلس، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠م.

(٢٥)عادل سعيد بشتاوي، الأمة الأندلسية الشهيدة (تاريخ ١٠٠ عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة).